المحاضرة العاشرة: الاتجاه الصوفي (طه عبدالرحمان)

في الحقيقة أن المشروع الفلسفي لطه عبد الرحمن(1944 ـ) ينقسم منطقيا وليس مرحليا، إلى عناصر ثلاث:**أولا:** فك الارتباط والتماهي بين الفلسفة عموما ومفهوم الحداثة خصوصا، وبين الفكر الغربي. وبذلك يصبح ممكنا أن تقوم لكل ثقافة فلسفة خاصة، وفكر حداثي خاص، مميز لها. **ثانيا:** إعادة الارتباط بين الأخلاق باعتبارها عمل وليس نظر وبين الفلسفة النظرية عموماومفهوم الحداثة خصوصا. وبذلك يصبح الفكر النظري والعمل الأخلاقي وجهان لعملة واحدة. **ثالثا:** تأسيس مفهوم العمل الأخلاقي على مبادئ وقيم الدين الإسلامي، وعلى قراءة معاصرة للقرآن الكريم، وذلك باعتبار الدين الإسلامي رسالة إنسانية في المقام الأول.

وقد ترتب على هذا التصور معارضته للفكر الغربي الحديث على أساس استبعاده للأخلاق بالمعنى العملي، ومعارضته للفكر الإسلامي القديم والحديث على أساس النقص في التنظير لهذا المبدأ الأخلاقي، وبالتالي أصبح من الضروري إنشاء نسق "حداثي – أخلاقي" جديد يكمل النقص في الجانبين، وهو ما يمثل مضمون مشروعه الفكري.

أولا: التوفيق بين الحداثة والأصالة

أبدع طه عبد الرحمن في تفكيك جانب كبير من الإشكالية التي أدمنها الفكر الإسلامي المعاصر، ونقصد بها السعي المؤرق إلى تحقيق التوفيق بين المعاصرة أو الحداثة والأصالة أو الإسلام، فهو يتوجه بالنقد إلى التصور التقليدي مثلما يتوجه إلى التصور الحداثي، وتكمن دعوى تأسيس الحداثة الإسلامية في الرهان على روح الحداثة كمطلب يمكن أن يتواءم مع التطبيق الإسلامي باعتباره مجاوزة ممكنة لأعطاب واقع الحداثة الغربية، حيث يدمغ طه عبدالرحمان في عملهروح الحداثةمثلا المسلمة القاضية بتسييد الإنسان على الطبيعة بالبديل الحداثي الإسلامي الذي يبنيه على مصادرة ما أُطلق عليهالميثاق العظيم، قائلا في هذا الصدد : " إذا كان لا بد من ميثاق حقيقي أو اعتباري

يعقده الإنسان مع غيره، فلا يمكن أن يكون ميثاقا منحصرا في العالم المرئي كما ذهب إلى ذلك أهل التطبيق الغربي للحداثة، بل ينبغي أن يكون ميثاقا يشمل العوالم كلها، المرئي منها وغير المرئي، وذلك لأن الفرد لا يتعامل مع غيره إلا ووسائط تعامله ومتعلقاته تشكل عناصر مأخوذة من عوالم مختلفة.. فيلزم أن تكون هذه العناصر أطرافا سوية في هذا الميثاق العظيم، وهكذا فالتعقيل الإسلامي هو تعقيل يأخذ بهذا الميثاق الكوني الشامل".

ويرتكز المشروع الفكري لطه عبد الرحمن على مجالين اثنين:

ـ فقه الفلسفة الذي طلب فيه تحرير القول الفلسفي من التبعية والتقليد، وذلك من أجل تحقيق الإبداع الفلسفي المنشود بإنتاج فلسفة عربية أصيلة.

ـ تأسيس الحداثة الإسلامية، بناء على النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، وذلك من خلال تقديم الجواب الإسلامي على إشكالات العصر.

ثانيا: العقلانية والحوارية والأخلاقية

لو تم اختزال المشروع الفكري لطه عبد الرحمن لكان في عناصر ثلاثة وهي: العقلانية، والحواريةوالأخلاقية، وهي بالمناسبة شعار مؤسسةمنتدى الحكمة للمفكرين والباحثينالذي يرأسه طه عبد الرحمن، والذي نظم العديد من الندوات والمحاضرات التي تساهم فيالرضوخلمقتضيات الحديث عنالعقلانيةوالحواريةوالأخلاقية.

فمن جهة استوفى مشروع طه عبدالرحمان العقلانيةمن جهة دفاعه المستميت عن توسيع العقل وعدم تضييع آفاقه، كما دعا إلى ربطه بالجانب العملي وتقييده بالغايات والمقاصد السامية، وهذا من شأنه أن يحد من تجريد العقل ويحول دون تعريته من القيم، بحيث يصير قاعا صفصفا، فيكون لتسيبه الأثر الوخيم على النظر والعمل.

وأما عن مكانةالحواريةفي المشروع الفكري لطه عبدالرحمان فنعثر عليها في الطابع المناظر ـ نسبة للمناظرة ـ الذي يطغى على كتابات طه عبد الرحمن، فهو لا يكف عن استحضار أو افتراض المخاطب.

وأخيرا يعتبر مظهرالأخلاقيةمن المظاهر القوية في مشروع طه عبدالرحمان، حتى أنه يُلقب من قبل البعض بأنهفيلسوف الأخلاق، فهو ينطلق من تجديد مفهوم الإنسان بإخراجه من التحديد اليوناني الذي اختزل الإنسان في العاقلية: الإنسان حيوان عاقل، إلى التحديد الإسلامي الذي اعتبر الإنسان كائنا أخلاقيا، وهو في هذا يلتقي وفلاسفة غربيين أمثال ليفيناس وبول ريكور وغيرهما.

ومعلوم لمتتبع أعمل طه عبد الرحمن أن ما يطبع فكره بشكل جلّي، ذلك التركيز على الجانب الأخلاقي،بدليل أنه يتبنى من غير أدنى حرج النقد الأخلاقي ويستمد من طرائق المنطق ومناهجه التدليل الأخلاقي، والإحالة هنا خصوصا على كتابه: (سؤال الأخلاق)الذي يعتبره، كما جاء العنوان الفرعيمساهمة في النقد الأخلاقي للحداثة الغربية، لذا نجد النقد الأخلاقي يطال العقل ويطال الممارسة الفكرية وكافة أشكال النظر، لأنه إذا كان التصرف الإنساني يتقوم بالقيمة، وبالتالي يخضع للنقد الأخلاقي، فإنه من باب الأولى أن ينعت الإنسان بكونه كائنا أخلاقيا.

ثالثا: الانتصار لسؤال المشروعية

هناك مكون آخر من دعامات المشروع الفكري لطه عبد الرحمن يتمثل في كون عقلانيته وحواريته وأخلاقيته تنتظم تحت سؤال المشروعية، فدفاعه المستميت عن الخصوصية الفكرية سواء في كتابه:(الحق العربي في الاختلاف الفلسفي) أو في كتابه: (الحق الإسلامي في الاختلاف الفكري)دفعا به إلى تبرير مشروعية الاختلاف وطرح سؤال المشروعية، ويجيب طه عبد الرحمن على سؤال المشروعية: مشروعية الاختلاف الفلسفي كما جسدهافقه الفلسفةالذي يدعو إلى إبداع فلسفيعربي متميز يبرز خصوصية التفلسف العربي ويثبت الحق العربي في أن ينتج خطابا فلسفيا مخصوصا يبرز فيه إسهامه الفلسفي في الفكر الإنساني، ومشروعية الاختلاف الفكري الإسلامي الذي يطبعه الجواب الإسلامي على أسئلة العصر، مما يدفع عن المسلمين النقد الذي يوجه إليهم بكونهم لا يتوفرون على إجابات مقنعة عن قضايا تطرح على الفكر الإنساني قاطبة.

رابعا: تقويم القراءات التراثية

لما كان أحد أبرز الأعمال التي عرّفت طه عبد الرحمن للمتلقي العربي كتاب: (تجديد المنهج في تقويم التراث) حيث أكد بأنه قد اهتم بالتراث وأعاد الاعتبار لجوانب من هذا التراث التي طالهاالتشييع الباطل، وإحياء النظر وتجديد الاعتبار لجوانب أخرى من التراث طالهاالإهمال الفاحش، إضافة إلى فتحه باب إمكانية استئنافعطاء التراث من انتحال آليات منقولة. وواضح أن كتاب: (تجديد المنهج في تقويم التراث) ساهم في دحض تحامل جل الباحثين المعاصرين في الغالب على كثير من الجوانب المشرقة في تراثنا مغفلين القيمة المنهجية والعدة المفاهيمية التي تحملها، فجازفوا بأحكام قيمة يقيدونها تارة بمنطلقاتهم المنهجية المستمدة من الفكر الغربي دون وعي بأصولها وفائدتها المحدودة، وتارة بقناعاتهم الإيديولوجية، تجعلهم تارة يبحثون عننزعات ماديةأو عنعقلانية محاصرة، ويفوتون بذلك على أنفسهم الإنصات إلى كلمة التراث المنحدرة إلينا من أنفسنا.